البناء الوصفيّ لملحمة إيرا "إله الطاعون"

أ. خالد سالم إسماعيل(*)

من بين النماذج الأدبية الشهيرة التي شاع صيتها ضمن أدبيات العراق القديم، تبرز القصيدة البابليّة "šar gimir dadmē" أو ملحمة الإله البطل للمحارب إيرا " ^{d}ERRA " ، والتي تعرف في المباحث الحديثة بعنوان "ملحمة ايشوم وايرا[١]".

ان هذا النتاج الأدبي قد نظم بأسلوب شعري وصفي بليغ المعاني، ويحتل مكانة خاصة في الأدب الآشوري – البابلي، وذلك لأسباب عدة أهمها:

أولا: تنظيمه وصياغته: حيث يمكن درجهُ بين افضل ثلاث قصائد شعرية مدونة في العراق القديم.

ثانيا: ميزاته الأدبية: إذ يعد من نوادر الأعمال الأدبية التي ارتقت إلى حد العظمة المأساوية، وهذا ما سنلاحظه جليا في العديد من مقطوعاته، وكذلك الأسلوب الجمالي الذي صورت به الأدبيات الشعرية لهذه الملحمة[٢].

(*) قسم الدراسات المسمارية / جامعة الموصل.

(١) Al-Rawi, F.N., & Black, J.A. " The Second Tablet of IŠUM and IRRA" Iraq, vol-51, (1989) p, III

(٢) لابات، رينيه، للمعتقدات الدينية في بلاد الرافدين، مختارات من النصوص البابلية، ترجمة البير أبونا ووليد الجادر، بغداد، ١٩٨٨، ص١٣٣.

يعود زمن تدوين هذه الملحمة على الأرجح إلى حدود القرن السابع قبل الميلاد[٣]، حيث دونت هذه القطعة الأدبية بأسلوب شعري فريد، توزعت على خمسة ألواح طينية، يُعتقد أنها ضمت (٧٥٠) بيتاً شعرياً، ما عثر عليه منها لحد الآن لا يتجاوز (٦٠٠) بيتاً شعرياً كاملاً[٤].

ان نص ألواح هذه الملحمة قد ورد في نصوص آشورية من المدن (آشور، نينوى، سلطان تبه، ونصوص بابلية من المدن (بابل، أور، ميتورنات (تل حداد))[٥].

وعلى ما يبدو ان هذه القصيدة قد تمتعت بأهمية دينية، وهذا ما يؤكده العثور على نسخ عديدة، والتي بلغ عددها حوالي (٢٦) نسخة. كما أن لوحها الرئيس الذي عثر عليه في مدينة اشور، وجد مدوناً بأسلوب مختصر على شكل حرز (حجاب) يعلق على الصدور، وهذا ما حدا ببعض الباحثين أن يصنفها من بين اكثر القصائد الأدبية شيوعاً في العراق، ومهما يكن من أمر النصوص المسمارية المتعلقة بهذه الملحمة، لا بد لنا من التعرف على أهم الشخوص الذين توالوا على تلاوة الخطابات المباشرة داخل القصيدة، وهم على التوالي:

(٣) الراوي، فاروق ناصر، " الأدب العراقي القديم ـ التصدي للتحديات "، مجلة آفاق عربية، العدد ـ ١٧ / ١٩٩٣، ص٧٣

(٤) دالي، استيفاني، أساطير من بلاد ما بين النهرين" ترجمة نجوى نصر، اكسفورد، ١٩٩١، ص٣٣٣ وكذلك : الراوي، فاروق ناصر، المصدر السابق، ص٧٢

(٥) دالي، استيفاني، المصدر السابق، ص٣٣٣

- الشاعر، ناظم النص. ويدعى (كابتي–ايلاني– مردوك)(kabti-ilani-marduk)، من قبيلة دابيبي، وهي عائلة ورد ذكرها للمرة الأولى في حوالي ٧٦٥ قبل الميلاد، وارتبط اسمها بتسلم مناصب عالية في مدينتي بابل والوركاء[٦]، حيث يرد اسم ناسخ النص هذا في الأسطر الأخيرة من القصيدة، ويقول ان الإله مردوك نفسه ظهر له في الحلم وأملى عليه القصيدة[٧]، وانه لم يضف إليها أو ينقص منها شيئاً[٨].

- الإله إيرا: الذي يوصف بأنه الإله البطل المحارب، الإله المدمر، اله الطاعون، اله الجحيم، الذي لم يكن سوى تشخيصاً للإله نركال، وانه زوج الآلهة – مامي. "Mami" آلهة الخصوبة (الآلهة ألام).

- الإله ايشوم: حاجب الإله إيرا (مستشاره)، ومن ألقابه (خندورسنكا) بمعنى (الصولجان السامي) وكذلك لقب في القصيدة بـ (انكيدودو) بمعنى الحارس اليقض للأمير.

- الإله مردوك: عظيم الأولى بابل، وفي الملحمة ظهر بصفة الإله المخدوع.

أما فيما يخص الأساليب الوصفية التي ارتكز عليها بناء هذه القصيدة بأنواعها الخمسة، فنجدها موظفة بشكل بارع حيث ارتقت بخاصية الحدث ودلالاته الدينية والتاريخية، من خلال عرض مشاهد لصور طالما بقيت عالقة في أذهان العراقيين

---

(٦) دالي، المصدر السابق، ص٣٣٤ ـ ٣٣٥

(٧)يؤكد معظم الباحثين المتخصصين في هذا المجال على ان تداول النصوص الأدبية كان شفاهاً في العصور التي سبقت التدوين، ينظر: الراوي، فاروق ناصر، المصدر السابق، ص٦٨

(٨) باقر، طه، مقدمة في أدب العراق القديم، بغداد ١٩٧٦، ص١٣٩

القدامى، وذلك بإثارة حماسهم تجاه القضايا المصيرية، ولفت أنظارهم نحو الأخطار التي قد تحيق بالبلاد، وما ينطوي على ذلك من تخريب ودمار، وهذا هو نوع من التذكير التاريخي الذي يستلهم حوادث وقعت على البلاد في عصور سابقة، لكنها استحضرت في عصور لاحقة، نظراً لمرور البلاد بفترة اضطرابات وتداعيات، تهدد أمن البلاد وسلامتها، وكذلك خلو الساحة من الزعيم المنقذ الذي تتنبأ به هذه الملحمة وتنعته برجل أكد ربما هي إشارة إلى نبوخذ نصر الثاني أو مردوك- أبلا – إدينا الثاني[٩]. أما الجانب الآخر من هذه القصيدة فهو الجانب المأسوي الذي اكتنفت معظم الأبيات الشعرية، والذي جاء (كما أسلفنا الذكر) انعكاساً للأزمنة المأساوية التي مرت بها بلاد بابل أبان الغزو السوتي لها، وتداعياته عندما حل الدمار والخراب وتفشت الأوبئة، ومنها الطاعون في أنحاء البلاد.

ولا يفوتنا أن ننوه إلى أن هذه القصيدة ضمت بعضاً من الخصائص المسرحية، مما جعلها ذات قيمة كبرى في استقاء بعض المعلومات عن أصول الفن المسرحي الجاد. وبعد ما تقدم من المفيد الاستشهاد ببعض من أبيات القصيدة (الملحمة) لكي يتضح لنا البناء الوصفي والطابع المأسوي الذي انتهجته هذه الملحمة، وكذلك التمثيل الواضح لبعض الطقوس، حيث نقرأ بين اسطر اللوح الأول وصفاً للآلهة السبعة الذين أعطاهم الإله آنو (اله السماء) إلى الإله أيرا

(9)- Dalley, S., Myths from Mesopotamia, Oxford, 1989. p. 283

بطل الآلهة (في القصيدة)، ليسير إلى جانبه بعد أن عين مصائرهم حيث جاء ما نصه:-

- عندما أخصب آنو، ملك الآلهة، الأرض،
- أنجبت الآلهة السبعة، فاسماهم سبيتي.
- وعندما وقفوا أمامه، عيّن لهم مصيرهم
- استدعى الأول وأعطاه هذا الأمر:
- متى كنتم عصبة وانطلقتم معاً، لن يكون لكم منافس
- وكلم الثاني قائلاً: اشتعل مثل النار، واستعر كاللهب
- وقال الثالث / ليكن لك مظهر أسد، وليرتعب كل من يراك
- وقال للرابع / دع الجبل يتلاشى أمام كل من يحمل أسلحتك الشرسة
- وأمر الخامس قائلاً: هب كالريح وأسير مدار الكون
- واصدر أمر السادس قائلاً: اخترق الأعلى والأسافل، ولا تبقي أحداً
- أما السابع فحمله سم التنين، لكي يتلف كل حياة[١٠].

ومن أبيات اللوح الأول أيضا نجد الأسلوب الوصفيّ لحالة المحارب المتقاعس، عندما تخاطب الآلهة السبعة الإله إيرا لكي تقف إلى جانبه ونقتبس منها الآتي:-

(١٠) لابات، رينيه، المصدر السابق، ص١٢٦

- قالوا لإيرا: قم! انهض!
- لماذا تقبع في المدينة كعجوز واهن
- وتبقى في البيت مثل صبي صغير
- ومن لا يذهب إلى المعركة، فيأكل خبز النساء
- وكأننا لا نعرف القتال، أتخاف وترتعد؟
- التوجه إلى ساحة المعركة للذهاب إلى احتفال
- ومن يبقى في المدينة، وان كان أميرا لا يمكنه أن يقتات بخبز
- انه مكروه بين شعبه، وشخصه محتقر
- كيف يستطيع أن يرفع يده بوجه ذلك الذي يتوجه إلى المعركة؟
- ومهما عظمت قوة ذلك الباقي في المدينة، كيف وبماذا يكون أقوى من ذلك الذي يمضي إلى المعركة[١١]؟
- وطعام المدينة، مهما طاب، لا يقارن بما يطهى فوق الجمر[١٢]
- أشهى الجعة، مهما لذت لا تقارن بمياه القرب

---

(١١) لابات، رينيه، المصدر السابق، ص١٢٧

(12) Dalley, S, Op - cit, p. 187

وتستمر أبيات القصيدة في شحذ همة الإله ايزا وإثارة حماسه للمضي إلى المعركة، وليطلق صرخته المدوية حيث جاء في الأبيات:-

- أطلق صرختك قوية حتى يرتعد من في الأعالي ومن في الأسافل
- كي يسمعك الايكيكي[١٣] ويمجدون اسمك
- كي يسمعك الانوناكي[١٤] ويخشون كلمتك
- كي يسمعك الآلهة ويخضعون لنيرك
- كي يسمعك الأمراء ويركعون تحت قدميك
- كي تسمعك البلدان وتأتيك بإتاوتها
- كي تسمعك العفاريت ويتجنبوك
- كي يسمعك الجبابرة ويعضون على شفاههم!
- كي تسمعك قمم الجبال وتحني رؤوسها رعباً[١٥]

ثم نجد الإله ايرا وهو يصف نفسه للإله ايشوم لكي يعطي الانطباع ان ما قيل عنه ليس صحيحاً، فيخاطبه قائلاً:

---

(١٣) الايكيكي ـ أطلقت على آلهة السماء في العصر البابلي القديم، وفي العصور اللاحقة أطلقت على آلهة الأرض

(١٤) ألانوناكي ـ اسم أطلق على جميع الآلهة، وفي الفترات المتأخرة اصبح الأسم يدل على آلهة السماء حصراً.

(١٥) دالي، ستيفاني، المصدر السابق، ص٢٤٠

- يا ايشوم الحكيم الذي مشورته صائبة
- أنا في السماء ثور وحشي، وعلى الأرض أنا أسد
- أنا ملك في البلاد، وبين الآلهة أنا الأشرس
- أنا الجزار بين الماشية، وفي الجبال أنا كبش البرية
- أنا نار في القصب .....، وفأس الحرب في الغابة
- أنا الراية للانطلاق إلى الحملة
- أهب كالريح، أرعدّ كأدد (اله الرعد والعاصفة)[١٦]

ولو انتقلنا إلى اللوح الرابع من الملحمة، نجد الإله إيشوم يخاطب الإله إيرا ويذكره بأهمية مدينة بابل التي يصفها في النص عقدة البلدان (ويقصد هنا مركز العالم حسب الاعتقاد البابلي لها)، وفي هذا اللوح تنحو الملحمة منحاً مأسوياً بليغاً، ومن خلاله أيضا يبرز النسيج التاريخي لوحدة الموضوع الذي بنيت عليه القصيدة ألا وهو غزو مدينة بابل، حيث نرى الإله إيشوم يخاطب الإله إيرا قائلاً:-

- آه أيها المحارب إيرا، ألم تخش اسم الأمير مردوك؟
- لقد فككت رباط " ديمكوكوراً" (يقصد بابل) عقدة البلدان مدينة ملك الآلهة (يقصد الإله مردوك).

---

(١٦) لابات، رينيه، المصدر السابق، ص١٢٦

- لقد بدلت طبيعتك الإلهية وأصبحت كالإنسان!
- تدججت بأسلحتك ودخلت
- إلى قلب مدينة بابل، وقُلت كمبتج
- انك ستستولي على المدينة

وبعد هذا البيت مباشرة ينتقل النص إلى وصف حالات الانحلال والفوضى التي عمت المدينة، حيث يصف سكان بابل، 'كقصب في مقصبة شائكة' يقصد هنا قصب الاهوار الكثيف الذي ينمو بحرية ويتحرك بحرية في مهب الريح دون توجيه محدد وهو وصف لحالة التدهور والتسيب التي سادت المدينة آنذاك حيث نقرأ ما نصه:-

- أما أبناء بابل، فليس عندهم من يتولى شؤونهم
- كالقصب في مقصبة شائكة، تجمعوا كلهم حولك
- من كان يجهل الأسلحة فهو ذا خنجرهُ مستل
- من كان يجهل الرماية وضع سهماً في قوسه
- من كان يجهل القتال، يشن المعركة
- من كان يجهل الركض، يطير كالعصفور (كالطير)
- البطيء يتجاوز السريع، الواهن يتفوق على القوي
- ضد الحاكم المسؤول عن مزاراتهم المقدسة
- يسيرون مطلقين وقاحات جسيمة

- أياديهم ذاتها سدت بوابة مدينة، قناة رخائهم
- أضرموا النار بمعابد بابل، كما يفعل من ينهب البلاد[١٧]

ولو انتقلنا إلى رؤية الإله مـردوك لمدينتـه بعـد أن اجتاحـها الدمـار وعمـها الخـراب سنجد صدى لمنظور فلسـفي دينـي مبنيـاً علـى أسـاس الرعايـة الإلهيـة لـهذه المدينـة المقدسة وهذا ما نستشفه من الأسطر الآتية:-

- اقسم انه لن يشرب ماء النهر
- وانه لن يدخل الايساكيلا كونه رأى دماءهم
- صرخ / آه يا بابل، لقد جعلت قمتها شامخة كالنخلة، لكن الريح أيبستها!
- آه يا بابل، أنت مثل كوز صنوبر ملأتها بالبذور، لكن لم أجن منها شيئاً
- آه يا بابل، زرعتها كبستان مثمر، لكن لم أذق ثماره
- آه يا بـابل، أنـت كختـم أسـطواني مـن حجـر نفيـس (فـي النـص حجـر الميشـو)، وضعته في عنق الإله آنو
- آه يا بابل، التي حملتها بين يدي كلوح الأقدار، ما كنت اتركه لأحد[١٨]

(١٧) لابات، رينيه، المصدر السابق، ص١٤٠

(١٨) قارن ترجمة الأسطر بين الراوي، فاروق، المصدر السابق، ص٧٤ وبين لابات، المصدر السابق، ص١٤١

وفي اللوح الرابع أيضا نجد وصفاً للغضب الإلـهي الـذي انـزل علـى النـاس، لعبثـهم بحرمة الآلهة، إهمالهم العدالة ولابتعادهم عن سلوك الخير، وبعد أن أصبحـوا تحـت قبضـة الغـزاة السـوتيين، وهـو وصـف شـامل للعقـاب الجمـاعي دون اسـتثناء، حيث نقرأ:-

- أهمل الناس العدالة ومارسوا الأعمال المشينة
- وهجروا الاستقامة، وخططوا للشر
- جعلتُ الرياح السبعة تهب على هذه البلاد وحدها
- من لم يمت بالمعركة سيموت بالطاعون (وباء)
- من لم يمت بالطاعون سيدمره العدو
- ومن لم يدمره العدو سيسرقه اللصوص
- ومن لم يسرقه اللصوص سيهزمه سلاح الملك
- ومن لم يهزمه سلاح الملك ستهلكه اللبوة (عشتار)
- ومن لم تهلكه عشتار سيجرفه أدد
- ومن لم يجرفه أدد، سيحرقه (يجففه) شمش
- ومن يخرج إلى الفلاة، جلدته الريح
- ومن عاد إلى منزله، سيضربه الجاثم (عفريت يدعى رابيزو)
- ومن صعد إلى المرتفع، سيموت عطشاً

- ومن يهبط إلى المنخفضات، سيموت غرقاً

وفي انتقالة إلى عمومية السخط الإلهي وسيادته على جميع الناس دون التمييز بين الصالح والطالح، نجد الإله مردوك يخاطب الإله إيرا واصفاً أعماله التدميرية قائلا له:-

- أيها المحارب إيرا
- لقد أمت بعدل وأمت ظلماً
- لقد أمت من كان قد أغاضك
- وأمت من لم يكن قد أغاضك
- لقد أمت الكاهن الأعظم المواظب على تقديم القرابين
- أمت خادم البلاد المخلص لملكه
- لقد أمت الشيوخ على عتبة دارهم
- أمت الصبيان ..... في فراشهم(١٩)

أما في اللوح الخامس والأخير من الملحمة وبعد أنْ هذا الإله إيرا، وركن إلى مشورة الإله ايشوم ونصيحته وخاطب مجمع الآلهة قائلا:-

---

(١٩) ينظر ترجمة النص لدى:

Dalley,Op-cit, p. 307.

ولابات، المصدر السابق، ص١٤٤

- انتبهوا جميعا، واحفظوا ما سأقول لكم!
- أجل على اثر خطأ سابق أنا أضمرت السوء
- استشطت غيظاً حتى أردت سحق الناس
- مثل أجير أطلقت من القطيع الخروف الممتاز
- وكمن لم يزرع البستان / لم أتردد في قطعه
- وكمن يخرب بلادا، صرعت البار والشرير دون تمييز
- من فم أسد زائر لا ينتزعون الفريسة
- حينما يكون أحداً غاضباً لا يستطيع آخر أن ينصحه[٢٠]

وفي ختام نص الملحمة الذي يقع في هذا اللوح نجد كاتب النص يتحدث بصيغة المتكلم وبسياق وصفي لا يقل شانا عن ذلك الذي سُطِرَ في أبيات الألواح الخمسة من نص القصيدة (الملحمة) ومن جملة ما يذكره هذا الكاتب في ختام هذه القصيدة على لسان الإله إيرا ما يأتي:-

- إن الإله الذي يقيم هذا النشيد ليتراكم الرخاء في معبده
- والأمير الذي سيذكر مديح بسالتي لا يكون له ندٌ
- والشاعر الذي ينشده لن يهلك بالطاعون
- وستعجب أقواله الأمير والملك

(٢٠) لابات، المصدر السابق، ص١٤٧

- والكاتب الذي سيعرفه غيباً سيكرهه العدو [٢١] ولكنه سيكون مكرماً في بلده

أما في الأسطر الثلاثة الأخيرة من ذا اللوح فقد دون الآتي

- ليبق هذا النشيد إلى الأبد، وليدم مدى الدهور
- لتسمعه جميع البلدان، فتقيّم بطولتي
- ليعرفه سكان جميع الأماكن المأهولة وليمجدوا اسمي[٢٢]

---

(٢١) في النسخة الآشورية للملحمة (ليحيا في بلاد الأعداء) ينظر: دالي، المصدر السابق، ص٣٦٤.

(٢٢) في النسخة الآشورية لهذا اللوح نجدها قد اختتمت بالتذييل التاريخي الآتي:-

- اللوح الخامس سلسلة إيرا،
- أنا آشور ـ بانيبال، الملك العظيم، الملك القوي، ملك العالم، ملك بلاد آشور،
- ابن اسرحدون، ملك بلاد اشور، ابن سنحاريب ملك بلاد آشور
- كتب، ودقق، وتفحص هذا اللوح بمعية علماء
- وفق مواصفات ألواح الطين وألواح الكتابة الخشبية، نماذج من آشور سومر وأكد
- ووضعتها في قصري للمطالعة الملكية
- وكل من يمحي اسمي المكتوب، ويثبت اسمه هو
- فليمح الإله ناب كبير لكتبة اسمه

ينظر: Dalley, Op-cit, p. 307.